التاريخ العربي الاسلامي لجبل عامل:

القرن التاسع عشر، قرن السيادة والدور المميز

بقلم : حسن سلمان سليمان

لم يكن في حدوده الحالية مجتمعا سياسيا موحدا خلال العصر العثماني ، بل كان يتميز ببعض الخصائص التي كانت سائدة فيه . فقد عاش سكان لبنان منذ قرون ، في اقاليم جغرافية منفصلة لا تقيم علاقات فيما بينها الا في حالات الخصام . ولم تكن السلطة الحاكمة في هذه الاقاليم واحدة ، بل كانت موزعة ما بين ولايات طرابلس وصيدا ودمشق .

وكان جبل عامل خلال هذه الفترة التاريخية جزءا من ولاية صيدا ، التي امتدت حدودها على طول الساحل من نهر الكلب حتى جبل الكرمل ، وتضم جانبا كبيرا من مدن بلاد الشام البحرية ، بيروت وصيدا وصور وعكا وحيفا ، الى جانب المقاطعات الخاضعة لالتزام امير جبل الدروز ، وبلاد صفد والجليل الواسعة الغنية وقيصرية في الوسط .

وامتدت حدود جبل عامل من نهر الاولي شمالا الى نهر القرن شمال قرية طير شيحا في الجنوب ، ومن البحر المتوسط غربا حتى الحولة ووادي التيم والبقاع شرقا . ومعظم سكان هذا الجبل من الشيعة الامامية الاثني عشرية ، ما عدا سكان بعض القرى المسيحية وتبلغ نسبتهم العشر تقريبا .

وقد اطلقت تسمية جبل عامل نسبة الى قبيلة عاملة بن سبا بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، التي هاجرت بعد خراب سد مارب الى اطراف بلاد الشام الجنوبية واقامت في هذه المنطقة كما انتشرت تسمية بلاد المتاولة ، منذ ان اطلقت هذه التسمية على معظم سكان هذا الجبل ، من الشيعة الامامية الاثني عشرية . واستخدم هذا التعبير القناصل الاوروبيون في التقارير ، التي كانوا يرسلونها الى حكوماتهم «terres des Mutuallis» , «Pays des Mutualis»

وعرفت في العصور الحديثة باسم بلاد بشارة ، وتضاربت الآراء حول هذه التسمية ، ويرجح بانها نسبة الى الامير حسام الدين بن بشارة بن اسد الدين بن مهلهل بن سليمان بن احمد من سلالة العاملي . وهو من امراء الدولة الفلاحية الكردية حضر مع الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن ايوب ، وفتح حصن هونين واقطعه مسؤولية حفظ بانياس .

وتقسم هذه البلاد الى قسمين : بلاد بشارة الجنوبية وبلاد بشارة الشمالية يفصل بينهما نهر الليطاني الذي يصب شمال صور .

اولا : بلاد بشارة الجنوبية وكانت تضم اربع مقاطعات .

مقاطعة تبنين : وهي مقر اقامة زعيم بلاد عاملة الشيخ ناصيف النصار وفيها قلعة تبنين الحصينة ومقاطعة هونين . وتضم هونين مقر اقامة الشيخ قبلان ومقاطعة قانا ومقاطعة معركة

ثانيا : بلاد بشارة الجنوبية : وهي لا نعرف بهذا الاسم وانما تعرف كل مقاطعة من مقاطعاتها الثلاث باسمها الخاص وهي : مقاطعة الشقيف : وفيها قلعة الشقيف من اقوى قلاع بلاد بشارة من بناء الصليبيين : ومقاطعة الشومر ومقاطعة التفاح .

وقد ذكر بعض المؤرخين ان مقاطعات جزين والريحان وكفرحونه ، كانت خاضعة لسلطة مشايخ بلاد عاملة في القرن الثامن عشر . ولكن لدى مراجعة تقارير القناصل الفرنسيين لم نجد ذكرا لها ضمن المقاطعات العاملية[1] ، ونظن ان التشويش حاصل نظرا لان اعدادا كبيرة من الشيعة كانت تقيم في هذه المقاطعات الثلاث . وقد ورد لدى القنصل هنري غيز[2] بان هذه المقاطعات الثلاث كانت تخص شيعة جبل عامل ، وقد استولى عليها الامراء الشهابيون بتشجيع من الجزار ، الذي ضايقه تهديد العامليين لهذه البلاد ، كلما شب نزاع بينه وبين هؤلاء . وهذا يعني انه منذ الربع الاخير من القرن الثامن عشر انتزعت هذه المقاطعات من السيادة العاملية .

وقد سار العثمانيون في حكم جبل عامل على نفس السياسة المتبعة في ادارة الولايات الجبلية الوعرة او البعيدة عن قلب الدولة . وذلك بجعل الحكم العثماني فيها سطحيا او اسميا ، اي انها لم تكن ترسل الى ولاياتها واقاليمها تلك حكاما عثمانيين ، وانما تعترف بوجود زعيم اقطاعي او عسكري او قبلي يحكم باسم السلطان . ويدفع في كل سنة الميري والجزية المقررة عليها ، ويحافظ على النظام بين السكان ، ومن هذه البلاد كردستان ولبنان وشبه جزيرة العرب .

واذا بلغ الزعيم درجة من القوة والنفوذ ، قد تشكل خطرا على المناطق المجاورة ، او بدت عليه نزعات استقلالية ، كان يتذرع اولياء الامر في الاستانة بالصبر . لانهم كانوا على ثقة تامة ان القضاء على جميع المتمردين في وقت واحد امر لا نهاية له ، ويتطلب اموالا وفيره ، كما ان الاخفاق قد يؤدي الى استمرار المتمردين في عصيانهم ، والى فقدان هيبة الدولة . لذلك كان المسؤولون يتحينون الفرص المناسبة للايقاع بهؤلاء المتمردين ، او تحريض جيرانهم او اقربائهم او ابنائهم عليهم وجميع العصاة يسيرون على نمط واحد وتكون نهايتهم واحدة .

وقد خضع جبل عامل لمجموعة من المشايخ الشيعة ، كل منهم مسؤول عن مقاطعته التي تضم قلعة حصينة ، يقيم فيها الشيخ الملتزم مع اتباعه المزارعين الذين يتعهدون ارض المقاطعة لحسابه . ويخضع جميع المشايخ لسلطة شيخ اعلى يسمى شيخ المشايخ ، يدفعون له الميري المتوجبة عن مقاطعاتهم ويلبون نداءه عند الحرب . ولا يسمح المقاطعجية للوالي العثماني بالتدخل في شؤونهم الداخلية ، والا تمردوا في حصونهم وجبالهم التي كانوا يعيشون فيها في ظل قوانين الطاعية . وقد ترك لنا القنصل الفرنسي في صيدا كشفا باهم زعماء جبل عامل في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ومكان اقامتهم والضريبة المقررة على كل منهم :[3] .

	قرش .
الشيخ ناصيف النصار المقيم في قلعة تبنين	١٨١٥٨
الشيخ قبلان المقيم في قلعة هونين	١٨١٥٨
الشيخ احمد عباس المقيم في صور وقلعة مارون خلفه ابنه بسبب وفاته وهذا خلافا للعادة التي تعطي الحكم للشقيق .	١٨١٥٨
الشيخ عباس العلي المقيم في قلعة ميس	١١٧٤٧
الشيخ علي فارس المقيم في قلعة شقيق	١١٧٤٧
الشيخ حسين منصور المقيم في اقليم التفاح	٠٧١٩٦
المجموع	٩٠٣٨٣

وكانت مدينة صور المنفذ الاقتصادي لبلاد عاملة ، وتقع على بقعة شبه متوغلة في البحر على شكل مطرقة . ويكتنفها سهل خصب يزرع بالقطن والذره والشعير والقمح والتبغ ، وهذه الغلة الاخيرة تلقى رواجا في دمياط ، ولذلك اعتنى السكان للغاية بزراعتها . الى جانب صيد الاسماك ، والعناية بانتاج الحرير الجميل الذي يشبه حرير صيدا من حيث الجودة .كما كانت البضائع الاوروبية تلقى رواجا فيها . وميناء المدينة اكبر من ميناء صيدا بقليل ، ولكنه كبقية المرافىء تغمره الرمال ، وهو الميناء الوحيد في كل سوريا ، الذي خصته الطبيعة بامكانية احتواء اسطول تجاري كبير واسطول حربي ، واعتادت اللجوء اليه القوارب التي يستعملها الفرنسيون يوميا لنقل البضائع الى صيدا وعكا ، اثناء هبوب الرياح والعواصف البحرية .

وعانى جبل عامل من الاخطار المحدقة به من جميع الجهات ، فمن البحر غزو القرصان الاوروبي ، ومن الجنوب ظاهر العمر وابنائه لمد نفوذهم على الجبل ، ومن الشرق غزو عرب البادية وقبائل شرق الاردن لكسب الاموال ، ومن الشمال غزو الولاة العثمانيين على ايدي ولاة صيدا وامراء آل شهاب ومحازبيهم من مشايخ جبل الدروز .

هذه الظروف جعلت من العامليين شعبا مقاتلا موحد الصفوف ، في حالة استعداد دائم خشية الغارات المفاجئة ، يتدرب رجالهم اثناء السلم على ركوب الخيل واستعمال السلاح ، مما جعلهم رجالا اقوياء ومحاربين اشداء يتميزون بشدة طاعتهم لزعمائهم . واقاموا في مجموعة من الحصون والقلاع من بقايا الصليبيين تجعلهم في عزلة عن اية اهانة ، ويخبئون فيها اسلحتهم وذهبهم ومؤونتهم وكل ما يحتاجونه ، وكانوا اقل عددا من الدروز ، ولكن اقوى كمحاربين ويعتبرون احسن فرسان سوريا .

وتميزت هذه البلاد باهميتها بالنسبة لتجارة فرنسا ، نظرا لمرور القوافل القادمة من بلاد الجليل وصفد عبر اراضيها ، وتحكمها في ميناء صور ذو الاهمية للمراكب الفرنسية . وقد مرت فترات حرجة بالنسبة لهذه التجارة ، حين نشبت بعض المشاكل بين تجار فرنسا والشيخ ناصيف الذي كان يصادر كل ما يخص الفرنسيين ، وحين نشب قتال بين ظاهر وحلفائه سكان هذه البلاد من جهة ، والوالي وانصاره زعماء جبل الدروز من جهة اخرى .

علاقة جبل عامل بامراء آل شهاب

وقد شهد النصف الاول من القرن الثامن عشر سلسلة من الصدامات المتواصلة ما بين امراء آل شهاب ملتزمو جبل الدروز[5] وملحقاته من جهة وجيرانهم مشايخ جبل عامل من جهة اخرى وذلك لاسباب عديدة .

١ ـ ادى انتقال التزام جبل الدروز الى آل شهاب القيسية ، وما تلى ذلك من انتصارهم الساحق على خصومهم اليمنية في معركة عين دارة ، واستمرارهم بعد ذلك في حكم جبل الدروز وملحقاته ، الى شدة عداء اليمنية لهم .. ونتج عن ذلك معاداة مشايخ جبل عامل اليمنية الشيعة لهم ايضا وتزعمهم لهذا الحزب .

٢ ـ ازدياد سلطة مشايخ زعماء الاسر في جبل الدروز بعد معركة عين دارة ، نتيجة الملكيات الزراعية الواسعة التي منحهم اياها الامير حيدر الشهابي . وادى ذلك بالتالي الى ضعف سلطة الامير الشهابي الحاكم عليهم ، وتحوله الى مجرد ملتزم جباية للدولة العثمانية قابلا للعزل والاقالة اذا لم ترض عنه هذه الزعامات المحلية . فوجد في تلك الحملات فرصة لزيادة نفوذه في الظاهر ، وتكتيل مشايخ الاسر القيسية من ورائه ، وراب الصدع بينهم في مواجهة العدو التقليدي .

٣ ـ الازدهار الاقتصادي الذي شهده جبل عامل في القرن الثامن عشر ، نتيجة لنشاط التجار الاوروبيين في بلاد الشام الجنوبية وتشجيعهم للتجارة منها . فازدهرت بالتالي الحياة الاقتصادية في جبل عامل ، واهتم السكان بزراعة التبغ والقطن بعد ان وجدوا اسواقا لها لدى الفرنسيين ، بالاضافة الى اسواق مصر . كما اخذ التجار الفرنسيون يتصلون مباشرة بمشايخ القرى ، وصاروا يدفعون لهؤلاء ثمن قطنهم مقدما ، مقابل حصولهم على صك يتعهد فيه هؤلاء المشايخ ، بتسليم الفرنسيين محاصيلهم القطنية مقابل المبالغ التي استلموها . وادت هذه العلاقة الى ازدياد المساحات المزروعة قطنا .

واشتهرت بلدة انصار بجودة انتاجها من هذه السلعة ، الى حد سعي القنصل الفرنسي في صيدا الى تنظيم تجارتها لمنع المضاربة بين تجار مرسيليا . واخذت اسعار القطن ترتفع تدريجيا مما ساعد على ازدياد مداخيل المشايخ ، ونمت قوتهم العسكرية وازداد نفوذهم السياسي ، وتمنعوا عن دفع الميري الى ولاة صيدا .

٤ ـ تحريض ولاة صيدا للامير الشهابي الحاكم بغزو بلاد عاملة ، واستجابة الاخير للاغراء طمعا في الاستيلاء على موارد تلك البلاد وتحطيم نفوذ زعمائها .

التحالف العاملي الزيداني

وشهد النصف الثاني من القرن الثامن عشر تطورات جديدة في بلاد الشام الجنوبية ومصر ، فقد استغلت بعض القوى المحلية النافذة فيها الازدهار الاقتصادي الذي اصاب مناطقها ، وانشغال الامبراطورية العثمانية بثورة ولاياتها الاوروبية فسعت بتحريض من روسيا الى التوسع على حساب ولايتي صيدا ودمشق ، واحتكرت لنفسها مداخيل البلاد التي كانت تسيطر عليها ، وتمنعت عن دفع الميري للسلطان . وحين شعرت بالخطر الذي قد يتهددها ، اقامت تحالفات جديدة مع بعضها البعض ، بهدف الحماية المشتركة ، وتكوين قوة موحدة قادرة على الصمود والتوسع .

وتمثلت هذه القوى الجديدة في اسرة الزيادنه بزعامة ظاهر العمر الزيداني في الجليل ، وشيعة جبل عامل بقيادة ناصيف النصار ، ودولة المماليك في مصر التي تراسها علي بك الكبير . وكانت هذه القوى تعاني من المتاعب في مناطق نفوذها ، بسبب جهود السلاطين العثمانيين للتدخل المباشر في شؤونها ، وانزال القهر والاستغلال والظلم بشعوبها . فتطلع هؤلاء القادة الى صد هذا الخطر المشترك وسعوا الى التحالف ،وانقسمت سوريا الى قسمين حزب السلطان وحزب المتمردين .

فكيف تمكنت هذه القوى الجديدة من البروز على مسرح الاحداث في بلاد الشام ومصر ؟ وما هو موقف العثمانيين منها ؟ وهذا ما سوف نحاول اختصاره بقدر الامكان نظرا لازدحام هذه الفترة التاريخية (١٧٥٠ ـ ١٧٧٥) بتطورات في غاية الاهمية برز خلالها العامليون كقوة رئيسية .

ظاهر العمر من قبيلة الزيادنة التي كانت تقيم في ايالة صفد ، وبرز ذكاؤه في سن مبكرة بحيث تمكن من التزام طبرية وهو في سن الرابعة عشر من عمره ، وحالف القبائل العربية المجاورة . واستطاع عن طريق الرشوة والزواج من التوسع في البلاد المجاورة له . واستفاد من تزايد انتاج القطن في بلاده فصار يبيعه الى تجار مرسيليا ، وتوثقت علاقاته مع نائب القنصل الفرنسي في عكا ، وتمت بينهما اتفاقيات تجارية في اوائل سنة ١٧٤٠ ، تنص:مقابل القطن والقمح الذي يشتريه الاخير يدفع لوالي صيدا الميري المتوجبة على الشيخ ، كما يزود ظاهر بالاسلحة النارية والبارود والنضيرة . وادى تدفق هذه الامدادات ، الى نمو نفوذ ظاهر السياسي والعسكري ، كماساعدتعامله المالي مع الفرنسيين على ثرائه الفاحش ، واصبح هو واسرته اقوياء واغنياء جدا ، وقادرين على الصمود في وجه الولاة المرسلين من قبل السلطان . ونشر الامن بحيث كان يمكن لامراة ان تسير وحدها في كل المنطقة الخاضعة له ، وهو امر لم يكن موجودا في كل الانحاء السورية ، واهتم بمصالح الفلاحين وجذب التجار الى مركز ادارته .

وشعر بالحاجة الماسة الى ميناء لتسويق الانتاج الوفر ، فوجد في عكا ضالته المنشودة[6] وفي سنة ١٧٤٥ استولى عليها وطرد حاكمها الاغا ثم حصنها وزودها بمدفعية وحول مستنقعاتها الى بساتين وحقول زراعية . وفي سنة ١٧٥٠ انتقلت اليها اعداد كبيرة من سكان وتجار مدينة صيدا ، كما اخذ تجار اوروبا الذين كانوا يعتبرون سابقا صيدا الميناء الرئيسي للتجارة في تحويل تجارتهم تدريجيا نحو عكا . وسنة ١٧٦٠ تمكن ان يجعل هذه المدينة الميناء الرئيسي لتجارة فلسطين ، واهم مدنها اقتصاديا وسياسيا ثم جعلها عاصمته وحكم منها الجليل ، وصار قادرا على التصرف في كل ولاية صيدا لان الوالي اصبح عاجزا عن فرض سلطته عليه . وفشلت كل جهود العثمانيين للتغلب على الشيخ الزيداني ، واخيرا جعلت الاستانة عدو ظاهر عثمان باشا الكرجي (الصادق) واليا على دمشق في ٢٦ تشرين الثاني سنة ١٧٦٠ [7] وحل مكانه في طرابلس ابنه محمد باشا . ومع ذلك فلم يستطع عثمان باشا قهر ظاهر ومهد لذلك عدة عوامل :

١ ـ ضعف الباشا العسكري واضطرار قواته للمرور في مناطق يسيطر عليها زعماء لم يكونوا جميعا موالين له .

٢ ـ عدم مساعدة والي صيدا نعمان باشا بالرغم من اوامر الباب العالي والاخطر من ذلك اعلام الشيخ بخطط عثمان باشا .

٣ ـ استمرار والي صيدا الجديد محمد باشا العظم في سياسة سلفه .

وقد ادى هذا الصراع بين ولاة صيدا ودمشق ، وانشغال الاخير في الحد من سلطة ظاهر على البلاد المجاورة له . وانغماس امراء آل شهاب في الصراع الحزبي (يزبكي ـ جنبلاطي) الذي افترس بلاد الشوف ، الى استقرار في جبل عامل وازدهار اقتصادي ، ساعد على بروز هؤلاء كقوة سياسية لها وزنها في الصراع الدائر على النفوذ في سوريا . واستطاعوا في شباط (فبراير) سنة ١٧٦٦ من الصمود في وجه حملة مشتركة ، مؤلفة من باشا صيدا واتباعه امراء ومشايخ جبل الدروز ، بسبب مصادرة العامليين لبضائع مركب تركي جنح على ساحل بلادهم .

وتدخل زعماء جبل عامل في الصراع الدائر بين ظاهر العمر وابنائه ، ففي حين وقف الشيخ ناصيف النصار وعثمان باشا الكرجي الى جانب علي الظاهر سنة ١٧٦٢ ساند الشيخ قبلان ملتزم صور الشيخ ظاهر . وفي سنة ١٧٦٦ تمرد عثمان على والده واحتمى في جبل عامل لدى الشيخ ناصيف النصار ، واتخذ من بلاد الاخير قاعدة للقيام بحملات عدوانية على بلاد الجليل .

وكان من الطبيعي ان لا يقف ظاهر موقف المتفرج ، من الغارات التي تنطلق من جبل عامل التي كان يطمح منذ زمن بعيد لضمها الى بلاده . لانه بذلك يحقق ثلاثة اهداف مهمة في توطيد حكمه في بلاد الجليل وصفد .

ـ ضم بلاد عاملة من شانه ان يحمي حدوده الشمالية ، من اي غزو مفاجىء من جانب ولاية صيدا ، التي كان يسعى والي دمشق لجعل ابنه الثاني درويش واليا عليها . وبذلك يكون قد اقام حاجزا منيعا في وجه باشا صيدا واتباعه امراء ومشايخ جبل الدروز .

ـ يحول دون مساعدة العامليين وحمايتهم لابنائه .

ـ العامل الاهم الاستفادة من القوة البشرية المتواجدة في هذه المنطقة . فقد كان بامكان زعماء جبل عامل ان يجندوا ما بين عشرة الى اثني عشر الفا من المقاتلين المجربين ، معظمهم من الفرسان المشهود لهم بالشجاعة في كل سوريا .

وظن الشيخ ظاهر ان بامكانه ان ينجح في السيطرة على جبل عامل بالقوة كما فعل في بلاد الجليل وصفد ، فاخذ يغير على القرى المتاخمة لبلاده . ونشبت بين الفريقين معارك عنيفة دون ان يحرز اي منهما نصرا نهائيا ، مما ادى الى تدمير القرى الحدودية لكلا الجانبين .

وهكذا صمد العامليون بوجه حملات ظاهر ، وفشل الاخير في ضمها الى صفوفه بالقوة ، كما اقتنع هؤلاء المشايخ بدورهم ، وشعروا ان من مصلحتهم في هذه الفترة من الصراع على النفوذ في سوريا ، ان يتحالفوا مع احد الفريقين لمواجهة الاخطار التي كانت تهددهم فاستجابوا لمساعي الصلح التي كان يقوم بها اعداء الدولة للاسباب التالية .

ـ لقد ذاقوا الظلم والمرارة والعذاب من الولاة العثمانيين .

ـ معاناة الامبراطورية العثمانية من الهزائم المتتالية .

وبذلك تم توحيد كل القوى المحلية في جبهة واحدة لمواجهة الاخطار المحدقة بهم ، مع احتفاظ كل قوة منها باستقلالها الذاتي ، تخلصا من ظلم الولاة وجورهم وصيانة الحرية والكرامة ، مع الاستمرار في موالاة سلطان المسلمين .

واستفاد ظاهر من هذا التحالف في كل الميادين التي كان يخطط لها ، واحترم العامليون كل تعهداتهم ، ووقفوا الى جانب حليفهم في كل المعارك التي خاضها في مواجهة اعدائه وانتهت جميعها بالفوز . وقد وصف الرحالة الفرنسي «Volney» هذا الاتفاق ، واعتبر ان الشيخ كان المستفيد الاول ، نظرا لقدرة حلفائه على حشد عشرة الاف فارس- « ... امن صداقة شعب يستطيع حشد عشرة الاف فارس ... »[9] .



خانات الافرنج :
محطات تجارية للفرنسيين

---

* **Archives Nationales de Paris**
Reperatoire numerique de la pous-serie B1
Correspendance consulaire - Lettres - reçues (AEB1)
Consultat de Seyde.

(١) من تقرير القنصل الفرنسي في صيدا .
AEB1 1036 Seyde. Etat de revenus du Miry du pachalik de Seyde. A. Les Recettes. du pays des Mutualis

(٢) بيروت : ولبنان منذ قرن ونصف قرن . . مارون عبود جزءان بيروت ١٩٥٠ راجع ص (٢٢١ ـ ٢٢٣)

(٣) LOC. CIT.

(٤) AEB1 1036 Seyde 13-1-1755

(٥) AEB1 1030 Seyde 4-11-1755

(٦) كانت عكا في النصف الاول من القرن الثامن عشر مجرد قرية صغيرة ولم تكن ولاية كما ورد لدى المؤرخ ابو شقرا في كتابه الحركات في لبنان ص (٨٠ ـ ٨٣) وقد نقل عنه ذلك الدكتور سليم الهشي في رسالته للدكتوراه .
LE Cheick Bechir Djounblat ... p 59

(٧) من مماليك اسعد باشا العظم والي دمشق وعند وفاة الاخير اعطى معلومات كافية لسلطات الاستانة عن ثروة سيده فلقب (بالصادق) وكوفىء بجعله واليا على طرابلس لا على دمشق كما ورد لدى المرادي : ج ـ٣ ص (١٦١) ثم نقل الى ولاية دمشق .

(٨) AEB1 1032 Seyde 6-6-1761

(٩) Voyage en Egypt et en Syrie Paris P 252.